الرقم التسلسلي المعياري الدولي: 2788-8037
المزيد عن رواق عربي وقواعد تقديم الأبحاث للنشر
https://rowaq.cihrs.org/submissions/?lang=en

الافتتاحية: الانتخابات الأمريكية ومستقبل العرب والخطاب الحقوقي (2-2)

محمد السيد سعيد

الإشارة المرجعية لهذا المقال: سعيد، محمد السيد (2008) *الافتتاحية: الانتخابات الأمريكية ومستقبل العرب والخطاب الحقوقي (2-2)*. رواق عربي، 13 (1)، 5-14.

إيضاح
هذا المقال يجوز استخدامه لأغراض البحث والتدريس والتعلم بشرط الإشارة المرجعية إليه. يبذل محررو رواق عربي أقصى جهدهم من أجل التأكد من دقة كل المعلومات الواردة في الدورية. غير أن المحررين وكذلك مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان لا يتحملون أي مسؤولية ولا يقدمون أي ضمانات من أي نوع فيما يخص دقة أو كمال أو مناسبة المحتوى المنشور لأي غرض. وأي آراء يعرضها محتوى هذا المقال هي آراء تخص كاتبيه، وليست بالضرورة آراء محرري رواق عربي أو مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان.

حقوق النشر
هذا المصنف منشور برخصة المشاع الإبداعي نَسب المُصنَّف 4.0.

الافتتاحية

الانتخابات الأمريكية ومستقبل العرب والخطاب الحقوقي (٢-٢)

صارت معالجة الانتخابات فى أمريكا عملية موسمية تهيمن عليها لغة الصحافة بدلا من لغة الثقافة. ومن الغريب حقا أن تفرض هذه المعالجة نفسها مع كل الانتخابات الرئاسية الأمريكية وحدها. ومن ثم لا نكاد نهتم بالانتخابات المحلية أو انتخابات التجديد النصفى للكونجرس، اللهم إلا من منظور ما إذا كان سيقوى أو يضعف الرئيس القابع فى البيت الأبيض!!. وبالتالي لم تطرح الصحافة، ولا طرح الفكر السياسى والثقافى العربى هو الآخر، فكرة ماذا نفعل؟ وهل نشارك فى الانتخابات الأمريكية أم لا؟. ولا يبدو أننا نتقدم كثيرا على المستوى الرسمى كذلك.

والأرجح أن الحكومات العربية لا ترغب، وإن شئنا الدقة لا تستطيع ولا تعلم، كيف تشارك فى الانتخابات الأمريكية. ولكن الأجيال العربية والمسلمة الشابه فى الولايات المتحدة الأمريكية وكندا، بل وهنا أيضا فى العالم العربى، اكتشفت معادلات لا بأس بها إذ نستطيع القول إن ظاهرة أوباما قد غيرت بالفعل المعطيات الجوهرية للمعالجات العربية، بما فيها المعالجة الحقوقية.

الموانع التقليدية:

الإعاقات التى منعت الحكومات العربية من المشاركة أو التأثير فى الانتخابات الرئاسية الأمريكية كثيرة ومعروفة. ولعل من أهمها أن هذه الحكومات لا تعرف من أمر الانتخابات إلا تزويرها والتلاعب فيها. ومن ثم، يصعب عليها أن تبادر للتأثير فى انتخابات تبعد عنها بآلاف الأميال. وكانت النكتة الشعبية تقول فى هذا أن الرئيس الأمريكى "فلان" طلب مساعدة انتخابية من الرئيس العربى "علان" للفوز فى الانتخابات الرئاسية ضد منافس عنيد، لأن هذا الرئيس العربى يكتسح الانتخابات فى بلاده بالنسب المعروفة.

وتضيف النكتة إن الرئيس العربى قد قبل بكل سرور تقديم المساعدة وذهب للإقامة شهورا هناك وعندما أعلنت النتيجة فاز بنسبة ساحقة... الرئيس العربى وليس الأمريكي!. أما من هو هذا الرئيس العربى الذى فاز فى الانتخابات الأمريكية، فهذا مالم تحدده النكتة وإنما تركته لاجتهاد كل من يلقيها ليسقطها بدوره على رئيس دولته!!.

ورغم تواطؤ النظم العربية مع إسرائيل، إلا أن أبسط علامة على أية محاولة للتاثير على الانتخابات الأمريكية ستجد فى انتظارها حملة صهيونية كاسحة تساهم فى مزيد من تسويد صورة العرب والمسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية. وبكل أسف، لم يفهم أكثر الزعماء العرب، ولفترة طويلة، أن ثمة طرقا أفضل بكثير للتاثير فى الانتخابات الأمريكية عن دفع مساهمات مالية لبعض المرشحين فى الانتخابات الرئاسية.

وقد كان الصهاينة ينتظرون بفارغ الصبر أن يكرر أي زعيم عربي هذا الخطأ لكي ينقضوا عليه، وعلى من يناصره بالطبع، انقضاض الذئاب على فريسة مرتعشة. وكثيرا ما حدث أن اضطر سياسيون أمريكيون، حتى من الدرجة الثانية، لإعادة المساهمات المالية لمؤسسات أو شخصيات عربية بعضها لا يملك أي تأثير في بلاده، فضلا عن أن يكون له تأثير ذو شأن فى الداخل الأمريكى أكثر من المال.

وفي المحصلة، إن أكثر الإعاقات أهمية، والتى منعت إطلاق مبادرات خلاقة من جانب الرسميين العرب إنما تكمن في تفضيل إقامة وإدارة العلاقات مع أمريكا على مستوى رسمي. ولا شك أن هذا الفهم يعكس الشعور بالعجز كما يعكس، في الوقت نفسه، التحيز الذهني الناشىء عن طبيعة التجربة السياسية التسلطية للزعماء العرب في بلادهم. وربما يسأل أكثرهم نفسه: لماذا المشاركة التى تجلب لنا مزيدا من المتاعب طالما أننا نستطيع أن نتعامل مع أمريكا من منطق المصالح، أيا كان زعيمها الحالي أو القادم، وأن ندير علاقاتنا مع أي شخص تحمله الانتخابات للمكتب البيضاوى على هذه القاعدة؟!.

السؤال وجيه بطبيعة الحال والإجابة النمطية مفهومة من وجهة نظر النظم التسلطية العربية. ولكن ثمة متغيرات مهمة تدعو بعض هذه النظم لإعادة حساباتها وقراراتها فى هذا الموضوع. فلم يسبق أن قام واحد من الجالسين في البيت الأبيض بالإعلان عن رغبته في "التخلص" من الزعماء العرب "التاريخيين" الذين عززوا وخدموا المصالح الأمريكية في المنطقة العربية. ويغلف جورج بوش هذه الرغبة بالدعوة لإجراء انتخابات نزيهة أو تطوير سياسات "ديموقراطية" في البلاد العربية الحليفة.

ولكن جورج بوش الابن قد لا يبقى الوحيد الذي فعل أو قد يفعل ذلك. والواقع، أن التدخل في السياسات العربية باسم الديموقراطية صارت عادة ذهنية أمريكية بذريعة ١١ سبتمبر. ولذلك قد يفكر زعيم عربي أو آخر على النحو التالي: ولماذا لا أتدخل أنا أيضا في السياسات الداخلية الأمريكية في المقابل؟!. وقد رد السيد/ جمال مبارك ردا قويا على خطاب الرئيس جورج بوش في منتدى ديفوس

بشرم الشيخ هذا العام بأن مصر "ستراقب" بدورها الانتخابات الأمريكية!!!.

ولم تكن الحكومات العربية تعرف في الماضى كيف تقوم بالتأثير في الانتخابات أو السياسات الأمريكية الداخلية بسبب الافتقار للخبرات. لكن اليوم ثمة تراكم، ليس فقط للخبرات النظرية فحسب بل والميدانية كذلك. ولدينا أعداد كبيرة من العرب والمسلمين الذين أثروا بمستويات وأشكال مختلفة على الانتخابات والسياسيات الأمريكية بل والكندية أيضا.

الشباب يكتشفون الطريق:

ومما لا شك فيه، إن عملية المشاركة هذه لا زالت فى بدايتها، بل ولا زالت بدائية بالمقارنة بما يمكن أن تكون عليه. ولا مجال للمقارنة فى هذه المرحلة مع قوة تأثير المنظمات الصهيونية. ولكننا نستطيع أن نقول بكل ثقة: إن الشباب العرب قد "اكتشفوا" الطرق المناسبة للمشاركة فى الانتخابات الأمريكية والتأثير عليها. فالعرب الذين يعدون بنحو مليونين إلى ثلاثة ملايين فى الولايات المتحدة بدأوا بتأثير منظمات إسلامية، وبدرجة ثانية عربية، التسجيل فى الانتخابات الأمريكية. وإن لم يكن التصويت العربي يشكل نصف التصويت اليهودى فلا بأس به، لأنه يمكن ويجب أن يحصل على مقابل سياسى.

وبينما وقعت أكثر المنظمات العربية فى الولايات المتحدة فريسة الخلافات والتمزقات والصراعات المدوية والصامتة فى الداخل العربى، إلا أن بعضها لا يزال صامدا بعد ويقوم بدور مشهود مثل "اللجنة العربية لمكافحة التمييز" أو "المعهد العربي". كما أثبتت التنظيمات الإسلامية، والتى تضم العرب وغير العرب بطبيعة الحال، أنها أكثر ثباتا وتأثيرا بل وخبرة كذلك. ولدينا الآن عدد لا بأس به من هذه المنظمات الفاعلة، وعلى رأسها منظمة كير CAIR.

ولكن الشباب العربي الأمريكي اكتشف من ناحية أخرى أن العمل على مستوى التنظيمات القاعدية أمر لا غنى عنه للتأثير فى السياسة الأمريكية على مستوى القمة. وبعض هؤلاء الشباب صاروا قادة على مستويات سياسية ومدنية مختلفة. وهناك تيار آخر فاعل للغاية فى صفوف العرب يمارس بدوره النضال، ليس ضمن تنظيمات السياسة والحياة اليومية الأمريكية، وإنما من خلال تأسيس حضور قوى فى الشارع أساسا وذلك من خلال المظاهرات والمسيرات.

ويشترك تيار المشاركة وتيار النضال الثورى في الشوارع فى أن كليهما صار "أمريكيا"، أي يعرف كيف يجب أن تمارس السياسة والفعالية فى النظام الأمريكى ووفقا للثقافة الأمريكية.

ظاهرة أوباما:

فى الماضي، كان بقية العرب ينظرون بتعجب وشىء من الرفض لهذا التيار من الشباب العربي الأمريكي الذي أسس حضوره فى الساحة السياسية هناك من خلال المظاهرات والمسيرات. فثقافتنا لم

تشهد هذه الممارسة الاحتجاجية والسياسية ولم تحتضنها إلا لماما. واليوم تفرض هذه الممارسة نفسها لسبب عجيب، وهو أن ظاهرة أوباما المرشح الديموقراطى لخوض الانتخابات الرئاسية الأمريكية تطورت عن ظواهر وقوى كثيرة من بينها، بل وربما يكون على رأسها، "الشباب الأمريكى الغاضب" والذي يرنو لإنجاز ثورة حقيقية فى السياسة الأمريكية من خلال التظاهر السياسى.

ولا شك أيضا أن ثمة دورا للحركة الحقوقية، وغن كان أقل مما يجب، فى توليد ظاهرة أوباما. والأهم أن الحركة الحقوقية الأمريكية ساهمت هي الأخرى فى تحضير الأجواء وفى تعليم المجتمع الأمريكى كيف يعزز فى الواقع حقه فى المشاركة السياسية وكيف يثور على مجمل الإعاقات المعادية للديموقراطية فى النظام السياسى الأمريكى.

فإن كان التأثير العربى محصورا فى الشباب العربى الذى طور خبراته من داخل الساحة السياسية والثقافية الأمريكية، وعلى الأرجح من خارج المؤسسات المهيمنة على السياسة الأمريكية، فهل هناك دور ممكن للحكومات العربية المحافظة؟!، وماذا يمكن أن يكون هذا الدور؟!.

لو أن هذه النظم اقتنعت بحتمية التأثير على الانتخابات الأمريكية وأن هذا التأثير يجب أن يبدأ اليوم وليس غدا، وأنها تستطيع ذلك أولا من خلال الحوار مع أطقم المرشحين. فهل تأخذ الحكومات والحركات الاجتماعية والمدنية العربية بهذه المقاربة؟!.

لماذا نشارك فى الانتخابات الأمريكية ؟!

قد يعارض كثيرون الاهتمام بالتأثير على مجرى الانتخابات الأمريكية. فلا شك أن الأولوية هى للإصلاح الداخلي الذى يرهق كاهل شعوبنا عبر رؤية الاعتماد على النفس على الأصعدة كافة. فإن لم ننتج حكومات نزيهة ومسئولة فمن يتحاور مع الأمريكيين؟، وأي معنى للتأثير عليهم إن لم تكن لدينا رؤية وقوة حقيقية تساندها؟!.

كما قد يشغلنا الاهتمام باختراق حجب الانتخابات الأمريكية عن أولوية إصلاح أوضاعنا فى الداخل فنكرر الخطأ الذى وقعت فيه نظم الحكم العربية عندما ظنت أنها تستطيع نيل العدالة للشعب الفلسطينى عن طريق الأمريكيين. والواقع، أنه حتى إسرائيل نفسها التى اعتمدت على القوى الكبرى فى كل مرحلة من مراحل تطورها انطلقت أساسا من عمل "داخلى" دؤوب وطويل المدى.

ومع ذلك، فالدرس الأساسى واضح ويبرز بصورة أكبر كل يوم: الصراعات الكبرى كانت دائما عالمية أو معولمة. وبالتالى يجب أن نتمكن من خوض النضال من أجل العدالة فى منطقتنا على مستوى عالمى، وأن نتعلم كيف نفوز على المستوى المباشر وعلى المستوى الدولي أيضا.

معنى أن نفوز على المستوى الأمريكى فى المدى الوسيط هو أن نطور عوامل وقوة تأثير موازنة تنهى احتكار الحركة الصهيونية للنفوذ على عملية صنع السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط. وبينما نعترف بصعوبة تحقيق هذا الهدف فى المدى المنظور إلا أنه ليس مستحيلا بحال من الأحوال. فالواقع

يؤكد أن تجربة أوباما نفسها دالة بقوة على إمكانية إحداث اختراقات مهمة فى الساحة الأمريكية. فالشاب الذي صعد للمنافسة على قمة الدولة الأمريكية فى غضون فترة لا تتجاوز –منذ البداية وحتى الآن– عشرة سنوات.

ورغم أنه صعد عبر مؤسسات الحكم، إلا أنه لم يصعد أيضا بفضلها. وإنما يعود الفضل في ذلك إلى تلكم القوى الشابة التي لم تكن أبدا فى الخريطة الذهنية للمحللين المحافظين ولا في حسبانهم. فقد اعتاد هؤلاء ازدراء القوى الثورية الشابة، وذهبت النظرية السياسية الأمريكية للقول بأن أدوار هذه القوى وقدراتها وطبائعها محصورة فى حركات الاحتجاج وليس أبدا المنافسة على مناصب ومؤسسات الحكم.

ولسبب ما تغلبت داخل الأجيال الشابة رؤية تقول إن علينا تغيير مؤسسة الحكم وأن ذلك ممكن بل وضرورى ويجب إنجازه. وفي سبيل ذلك تدربوا طويلا على التظاهر لشتى الأغراض، وتركزت حركتهم بوضوح أكبر وأكثر تأثيرا فى المسيرات القومية ضد مشروع بوش لغزو العراق. وعلى نحو ما ليس معروفا بما يكفى امتلكوا أو آمنوا برؤية تقول إنهم وحدهم من يمكنه أن ينقذ أمريكا من التراجع والانهيار. ووجدوا فى باراك أوباما زعيما يمكن الاعتماد عليه أكثر من غيره ممن باعوا قيمهم ورؤاهم الأولى لمؤسسة الحكم مثل الزوجان كلينتون.

شيء من هذا القبيل يمكن أن يدفعنا نحن العرب لخوض معركة نعلم أنها جبارة مع القوى الصهيونية التى تحتكر النفوذ على عملية صنع السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط. وليس فى ذهني شك أن هذه المهمة أصعب من تمكين أوباما أو أى شاب ملهم من المنافسة على المنصب الأعلى فى الدولة. فالانتخابات الرئاسية بالغة التعقيد وتتطلب سنوات من العمل ولكنها فى النهاية منافسة بين شخصين يفوز فيها شخص واحد.

أما إلحاق الهزيمة بالحركة الصهيونية فى أمريكا فتحتاج لخوض معركة طويلة المدى والتاثير على الانتخابات على مستوى "التاون هول"، أي أصغر وأدنى مؤسسة للنقاش السياسى والعام فى الولايات المتحدة الأمريكية. ولنا أن نتصور المهمة بمجرد أن نلقي نظرة على الكونجرس الذى يتكون من جديد كل عامين عبر شبكة مذهلة من المنافسات والصراعات الانتخابية فى واحد وخمسين ولاية كل منها يتكون من عدد متفاوت وكبير من الدوائر. الحركة الصهيونية مرت بعشرات الآلاف من الدوائر قبل أن تتمكن من الهيمنة التامة على البيت الأبيض وعبر أكثر من مئة عام من العمل المنظم فى الداخل الأمريكى.

ولكن ما حققه الصهاينة فى مئة عام يمكن للعرب وأنصارهم فى الداخل الأمريكى تحقيقه فى غضون عقد واحد وربما أقل. ورهاني الشخصي هو أنه يمكن الاعتماد أيضا على أخطاء جسيمة وقع فيها الصهاينة ولا يزالون. وأهم هذه الأخطاء على الإطلاق أنهم يهينون الأمريكيين بالمبالغة في عقاب كل من ينتقدهم وأنهم يريدون الاحتكار التام وهو أمر تنبذه النفسية والذهنية الأمريكية الشعبية.

وقد تحدثنا أيضا عن أنصار للقضايا القومية العربية وأظن انهم محصورون فى هذه الأجيال الشابة التى زجت بها الأحداث فى السياسات الشرق أوسطية دون أن تكون على اهتمام أو دراية تامة بالمنطقة سياسيا أو ثقافيا. فأحداث ١١ سبتمبر والغزو الأمريكى للعراق فرضا ارتباطا مفاجئا وعجيبا بين الأمريكيين والعرب وهم الأبعد الواحد منهم عن الآخر بمعيار الجغرافيا والثقافة وأسلوب الحياة.

وببساطة، نستطيع أن "نحلم" ربما بإطلاق عملية تشبه مسار باراك أوباما: تمكين معانى العدالة والسلام والحق الفلسطيني والعراقي من الصعود لرأس أمريكا رغما عن أنف "المؤسسة" المتحيزة لإسرائيل تحيزا مطلقا وإن لم يكن نابعا بالضرورة من قناعة حقيقية أو مصالح فعلية. ولكى نفعل ذلك لابد أن نتعامل مع الانتخابات الأمريكية.

ولأن التعامل مع الانتخابات الأمريكية يحصد ما تم زرعه على المستوى القاعدى (من التاون هول والبريسنت والكاونتى) فالطبيعى أن نبدأ من نضالات العرب الأمريكيين سواء على مستوى الأطر المنظمة أو على المستوى السكانى. والطريق الطبيعى هو دعم المنظمات العربية والإسلامية بمختلف الطرق الشرعية فى القانون وفى السياسة الأمريكية.

ولكننا نستطيع الاعتماد على آلية أخرى حكومية هذه المرة وهى إجراء حوارات مكثفة مع "طاقم المساعدين" للمرشحين. وكان يجب على حكوماتنا أن تبدأ هذه العملية منذ فترة طويلة حتى نستطيع أن نحصل على عائدها بسرعة كافية وبشرط أن تتم مباشرتها من جانب شخصيات ومنظمات لها بعض الخبرة والقبول فى الساحة الأمريكية أو تعرف كيف تحقق ذلك. والحال، أن نبدأ متأخرين أفضل من أن لا نبدأ على الإطلاق، كما يقول المثل الإنجليزى.

والأصل أن نخوض عملية الحوار هذه من خلال قوة إسناد فى المستوى القاعدي (أو الجراس رووتس) ونطوره إلى طاقم المساعدين من الوزن المتوسط ثم إلى المستوى الأعلى وثيق الصلة بكل من المرشحين الكبار. ولكننا فى كل الأحوال يجب أن نفهم كيف يتم هذا الحوار وكيف نصل به إلى نتائج.

فالرئيس الأمريكى يجب أن يقترح خطوط عامة لسياساته الكبرى. وكما جرت العادة فالتركيز التقليدى هو على القضايا الداخلية وبالذات الاقتصادية. وقد تغير ذلك اليوم، وإن لا يزال التغير جزئيا. فقد فهم الأمريكيون أن السياسات الخارجية صارت ضرورة للحياة اليومية فى أمريكا بسبب العولمة، فضلا عن أن أغلب الأمريكيين يعارضون، أو على الأقل ينفرون مثلنا، من العولمة وإن لأسباب مختلفة إلى حد ما. وهم أيضا صاروا ينفرون من الشرق الأوسط ولكنهم يتفهمون ضرورة التعامل معه.

وأهم ما يجب أن نفعله فى سياق الانتخابات الأمريكية أن نحدث انقلابا فى انطباعات الأمريكيين من القمة للقاعدة حول من هو السيء ومن هو الصالح فى المنطقة. هم يتصوروننا نحن العرب

باعتبارنا الطرف السيء. وتكفلت القاعدة والحكومات بتأكيد هذه الصورة: الأولى بالعنف والثانية بالفساد. ورغم العوامل الدينية، إلا أن أغلب الأمريكيين يرون إسرائيل باعتبارها الطرف الخير ولكن بقدر متزايد من الواقعية.

وبالطبع فقدت الصورة الانطباعية بعض بساطتها. والأهم أنها قابلة للتغيير وبسرعة معقولة بمجرد أن يعلم الناس فى أمريكا وغيرها ما حدث فعلا فى هذه المنطقة والدور الإجرامى لإسرائيل والحركة الصهيونية فى ضرب مشروع التقدم والقانون الدولى خلال أكثر من ستين عاما.

هذا على المستوى الشعبي، أما على مستوى الحوار مع أطقم المساعدين للمرشحين الكبار فموضوعه هو صياغة سياسة أمريكية قابلة للنجاح فى المنطقة وعرض صفقة تاريخية بين العرب وأمريكا.

صفقة تاريخية بين أمريكا والعرب؟

على نحو عجيب نسجت أحداث ١١ سبتمبر "علاقة مصير" مثيرة بين أمريكا والمنطقة العربية. وبالطبع كانت هناك جذور وبدايات وتطورات سابقة دفعت "الثور الأمريكى" للاصطدام الأحمق مع المشاعر السائدة فى العالم العربى على نحو متعاظم ولصالح إسرائيل وحدها. واشتد هذا الاندفاع مرات عديدة بعد أن قفز اليمين الأصولى والمحافظون الجدد للبيت الأبيض فى ظل إدارة بوش وتطبيقهم لسياسات استعمارية. غير أن الولايات المتحدة وجدت نفسها متورطة فى سياسات وصراعات وأوضاع المنطقة بصورة ضارة للغاية برفاهيتها وبقاءها على قمة النظام الدولى.

ويمكننا أن نتصور حجم التكلفة فيما لو اتسع الصدام بين العرب والأمريكيين بأبعد من حالتى فلسطين والعراق. ويكفى أن نشير هنا للتقديرات التى قام بها الاقتصادى الأمريكى الكبير كروجمان أن احتلال العراق كلف الولايات المتحدة بصورة مباشرة وغير مباشرة ما يزيد عن ثلاثة تريليون دولار وهو رقم مخيف بالفعل. فان أضفنا عشرات الآلاف من الجرحى وأكثر من ثلاثة آلاف من القتلى فى العراق لأمكن لنا تصور مدى النزيف الذى تعرضت له أمريكا بشريا واقتصاديا فى هذا الموقع وحده.

ولكن النزيف فى المكانة السياسية العالمية كان ولا يزال أشد. وقد استنتجت دراسة لريتشارد هاس، الرئيس السابق لقسم التخطيط السياسى بوزارة الخارجية فى مرحلة كولين باول، أن المستقبل يحمل بشرى سلبية للوضع الدولى للولايات المتحدة لأسباب كثيرة فجرتها جميعا عملية الاحتلال الأمريكى للعراق. فالولايات المتحدة تخسر مكانتها الانفرادية على قمة النظام الدولى وسوف تصبح واحدة من بين قوى متعددة وقد لا تكون أكثرها تأثيرا فيما لا يزيد على عقدين من الآن. وأثبتت "التجربة العراقية" أن أمريكا بكل جبروتها لا تستطيع أن تخوض حربين فى موقعين مختلفين ولو داخل نفس المنطقة.

وعلى نفس القدر من الأهمية، تخسر الولايات المتحدة كل يوم مكانتها المعنوية والأخلاقية لأسباب

متجذرة فى سياساتها التمييزية وتحيزها المطلق لإسرائيل واحتقارها الملحوظ للقانون الدولى وتبنيها لسياسة إملاء الإرادة على "الأمم المتحدة". ولا أدل على ذلك من سلسلة الهزائم السياسية التى تلقتها أمريكا فى المنطقة خلال هذا العام. فهى لم تعد قادرة على إجبار إيران على التخلى عن عملية تخصيب اليورانيوم والسيطرة على كل دورة الوقود ولم تعد تهديداتها ولا عقوباتها تجدى فتيلا بل تحقق عكس المقصود.

وخسرت أمريكا أيضا رهانها على إسقاط النظام السورى، بل وخسرت الصراع فى لبنان كما هو واضح فى إبرام اتفاق الدوحة الذى مال بشدة لصالح حزب الله الخصم العنيد لإسرائيل والأمريكان. بل خسرت أمريكا ثقة حلفاءها، خاصة مصر والسعودية. والأمر الأكثر أهمية أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تنسحب من المنطقة ولا تستطيع أن تستمر لأجل غير محدد فى تحمل تكلفة الخصومة معها.

وهذا هو ما يجعل مبدأ التفاوض مع "المنطقة" أمرا ضروريا وربما ملحا للمصالح الأمريكية الجوهرية. فلا يوجد حل سهل للورطة التى وضع الأمريكيون أنفسهم فيها. فإن حصرنا أنفسنا فى حالة العراق وحده لحصلنا على نموذج فذ لما يسمى بـ "معضلة السجين" فى نظرية اللعب حيث كل الاختيارات صعبة باستثناء واحد وهو أن يتم التواصل والحوار بين شريكين لهما مصالح مختلفة أو متناقضة بحيث يدرك الطرفان أن التوافق هو أفضل اختيار لكليهما معا وهذا هو ما نعنيه بالربط العجيب بين الأمريكيين والعرب.

أما من وجهة النظر العربية فالولايات المتحدة هى أقوى دولة فى العالم ويمكنها أن تسبب معاناة هائلة للشعوب وخاصة الشعبين الفلسطيني والعراقي. ولا شك أن الشعبين سوف ينتصران فى النهاية. غير أن نيل الحقوق المهدرة بقدر أقل من المعاناة أمر تهفو إليه النفس ويؤيده العقل والمنطق. بل إن مصير المنطقة يمكن أن يتغير للأحسن فيما لو وفرنا التكلفة الكبيرة للصراع ضد أمريكا وتوصلنا لحلول سلمية لمشكلات وصراعات المنطقة.

ما هو مضمون الصفقة التاريخية:

ولكن وضوح هذا الارتباط العجيب فى المصير بين العرب والأمريكيين يحتاج لتعرف واعتراف من جانب كل طرف. وفى الولايات المتحدة يطرح المرشح الجمهورى ماكين سياسات مستقبلية أسوأ مما يطرحه بوش، سواء فيما يتعلق بالعراق أو فلسطين. وتكاد الانتخابات الأمريكية تتحول إلى مزاد فى تأييد إسرائيل شملت حتى مرشح قوى التغيير والسلام فى أمريكا وهو باراك أوباما.

ولكن أوباما يظل الرهان الأفضل بكثير على استراتيجية الحوار. فرغم تعهده بدعم إسرائيل و"حمايتها" ومحاولته أو اضطراره للظهور بمظهر "الصقر" فيما يتعلق بإيران، وهو أمر نتوقع أن ينجر إليه أكثر فى غياب أدوار عربية رسمية وشعبية. فهو يفهم جيدا طبيعة الورطة ودور العرب

فى تحرير بلاده منها. ولذلك فإن عرض "صفقة تاريخية" على المرشح أوباما يقويه ويثبته أمام الضغوط الصهيونية العاصفة. يقويه، لأن مؤسسة الحكم الخفية الأمريكية تدرك طبيعة الورطة وتفهم الارتباط الاستثنائى العجيب فى المصير بين العرب والأمريكيين بعد ١١ سبتمبر.

فإن حصلت من العرب عن طريق أوباما على عرض جيد فقد تعمل على اختياره رئيسا للولايات المتحدة أو قد تتوقف عن إعاقته – أو ربما تصفيته بدنيا، كما أشارت ضمنا السيدة هيلارى كلينتون غريمته فى السباق الديموقراطى على الترشح للرئاسة– بعد أن فرض نفسه عليها بحكم الانتخابات.

ما هى طبيعة هذه الصفقة؟. ليس هناك قالب واحد أو معادلة سهلة أو نهائية. فالمفاوضات قبل أو بعد انتخاب أوباما تحتاج لحيز كبير من الاختيارات والتوافقات وربما المناورات. ولكن جوهر الصفقة التاريخية التى يمكن أو يجب على العرب عرضها على رجل مثل أوباما واضحة وهى التزام العرب بإحترام المصالح الأساسية المشروعة للولايات المتحدة فى المنطقة بما يمكنها من الانسحاب السياسى والاستراتيجى الآمن مقابل احترام المصالح الاستراتيجية والحقوق غير القابلة للتصرف للشعبين الفلسطينى والعراقى: أي الاستقلال، وحق العودة، وبناء دولة مستقلة كاملة السيادة.

يحتاج باراك أوباما لأن يفهم استحالة تطبيق برنامجه فى النهوض الاقتصادى والاجتماعى وتجديد أمريكا ما إن استمر الإهدار المخيف للموارد الاقتصادية والبشرية والسياسية فى صراعات المنطقة لمجرد خدمة المصالح الإسرائيلية فى حالتى فلسطين والعراق بالذات. ولو أن أوباما وفر كل هذه الموارد لأمكنه تمويل برنامجه أو رؤيته فى إعادة بناء أمريكا اقتصاديا واجتماعيا وبدون خسارة أى مصالح جوهرية أمريكية فى المنطقة. وفى المقابل، فإن حصول العرب على حقوقهم المهدرة مبكرا تمكنهم من الانخراط فى عملية إعادة بناء كبيرة تحررهم من التطرف والعنف، وربما من التخلف وعدم المساواة والفساد وتستعيد احتراميتهم فى المعترك الدولى.

السؤال الكبير الذى يمثل الفجوة الأساسية فى هذه الأطروحة، أو هذا الاقتراح، هو: من يفاوض أوباما أو طاقمه؟!. الإجابة الأقرب للمنطق هى الجامعة العربية. ولكن هذه المؤسسة العريقة صارت مجردة من القوة والصلاحيات. ولذلك قد تكون الإجابة الأمثل كما يلي: لتبدأ أية دولة، أو قوة كبيرة، أو حتى تيار سياسي الحوار مع طاقم أوباما حتى يقطع، ولو نصف الطريق، إلى صفقة وبعدها لابد أن تتحمل عدة دول عربية معا مسئولياتها.

د. محمد السيد سعيد